المحاضرة الرابعة:ابن خلدون

مولده و نشأته:

هو ولى الدين أبو زيد عبد الرحمن ابن محمد، المعروف بابن خلدون،فيلسوف مؤرخ للحضارة العربية، و السابق في وضع علم الاجتماع الحديث، و صاحب النظريات الجديدة في التربية و التعليم، ولد بتونس عام (732ه) ،في بيت شرف و رئاسة،تأدب على مشاهير أئمة عصره في القرآن و الفقه و العربية،وتضلع في فنون الأدب والتاريخ،اتصل بخدمة الدولة الحفصية(تونس)، و الدولة المرينية(فاس)،و ملوك بني الأحمر(غرناطة)،ومازال يتردد بين المغرب الأوسط و الأقصى و الأندلس ،ولما أدركته الشيخوخة رجع إلى الديار المصرية وتوفي بها سنة(808ه). له في التاريخ مؤلف يعرف: بتاريخ ابن خلدون : (كتاب العبر ديوان المبتدأ والخبر في ذكر أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر).

قدم له مقدمة فيها بعض الآراء في اللغة والأدب والبلاغة والنقد، واعتبره الناقد إحسان عباس أعظم ناقد في ذلك الزمن، على الرغم من أنه لم يزاول النقد الأدبي و لم يمنحه من جهده الشيء الكثير، وقد تأثر في تصوره وأحكامه في هذا الميدان (الأدب) بشيوخه وثقافته وبتجربته الذاتية في الشعر والنثر، فقد كان شاعرا ثم اضرب عن الشعر، وكان ناقدا يكتب نثرا مرسلا في عصر كثر فيه التكلف والأسجاع .

آراؤه النقدية:

إن ثقافة الرجل كانت العامل الثاني في توجيه أحكامه وآرائه النقدية ومحفوظاته في مختلف الموضوعات، فقد أشار عليه أستاذه أبو عبد الله محمد بن بحر بحفظ الشعر فحفظ كتاب الأشعار الستة والحماسة، وشعر أبي تمام، وطائفة من شعر المتنبي ومن شعر كتاب الأغاني، واجتمع إلى هذا ما حفظه من القرآن و الأحاديث و الفقه.

فهو يرى أن الإنشاء ملكة، والعامل الذي يكوّنها هو الحفظ ،فأقل ما يحتاجه من يريد أن يصبح شاعرا شعر أحد الفحول الإسلاميين وأكثر ما يحتاجه شعر كتاب الأغاني.

و الملكة يجب أن تتفرد بإتباع الفن الذي توفرت فيه بحيث لا تنازعها ملكة أخرى، وقد أصر على ضرورة الثقافة والدربة والطبع والذكاء كي تحصل ملكة الأدب، فبعد الحفظ يأتي المران(الدربة) وقد سماه الاستعمال قال:« ثم يتصرف بعد ذلك في التعبير مما في ضميره بحسب عباراتهم وتأليف كلماتهم فتحصل له هذه الملكة، ويحتاج بعد ذلك إلى سلامة الطبع.

كما يري أن بلاغة الشعراء الإسلاميين أرفع من بلاغة الجاهليين بسبب القرآن الكريم فبلاغة حسان بن ثابت والحطيئة وعمر بن ربيعة، وجرير والفرزدق، وذي الرمة ونصيب

والأحوص و بشار أرفع طبقة من شعر النابغة وعنترة وعمرو ابن كلثوم وغيرهم من شعراء الجاهلية لأن الإسلاميين أتيح لهم محفوظ القرآن والأحاديث الذي عجز البشر عن الإتيان بمثله.

-كما كان ينفر من حشد المعاني(لأنه يذهب الفكرة) وتزاحمها في البيت الواحد، مؤثرا السهولة والتبسيط في الشعر الذي تسبق معانيه ألفاظه، فكثرة المعاني في البيت دليل على تعقيده.

لذلك فهو يؤمن إيمانا عميقا بقيمة الفكرة،ولهذا لا يرضى أن يبددها في ضباب كثيف من المحسنات اللفظية(يؤمن بالمضمون أكثر من إيمانه بالشكل).

عرف الشعر فقال: « هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله و بعده الجاري على أساليب العرب المخصوصة به».

وضع حدا فاصلا بين الشعر والنثر من ناحية الموسيقي ثم يقرر أنه لا فرق بينهما إلا في الوزن، أما التقفية فمشتركة بينهما وهي في الشعر قافية وفي النثر سجع. ثم يعود إلى مسألة اللفظ والمعني، ويرى أن الأصل في صناعة النظم و النثر هو اللفظ والمعاني تابعة للفظ لأن المعاني موجودة عند كل واحد وفي طوق كل فكر فلا تحتاج إلى صناعة وتشبيهات على ذلك: بماء البحر فقد يغترف بآنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف بينما الماء واحد (فكرة الجاحظ).

أما مسألة الذوق الأدبي فقد عالجها بنوعين من المعالجة :

1-الاحتكام إليه والتعويل عليه في الأحكام التي يصدرها النقاد على الأعمال الأدبية

2-تفسيره في مصطلح أهل البيان وتحقيق معناه وبيان أنه لا يحصل غالبا لبعض الناس وهنا تفرد في أمرين:

أ-بيان علة إطلاق الذوق على تلك الحاسة وهو موضوع في الأصل لادراك الأطعمة باللسان وهذه العلة هي أن اللسان مشترك، فالملكة محلها اللسان من حيث أنه أداة للنطق بالكلام مثلما هو أداة لذوق الطعام.

ب-بيان وظيفة الذوق وأنها مزدوجة، فهو يهدي البليغ إلى جودة النظم وحسن التركيب الموافق لتراكيب العرب في لغتهم ونظم كلامهم، كما أن من وظائفه أنه إذا عرض علي صاحبه الكلام حائدا عن أسلوب العرب (يرفضه الذوق)، وبلاغتهم في نظم كلامهم اعرض عنه و مجه.

و خلاصة الأمر أن آراء ابن خلدون النقدية مستمدة من تجربته الخاصةو من التيار العربي الخالص في النقد الأدبي بعيدا عن المؤثرات اليونانية.

المصادر و المراجع:

-العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده:ابن رشيق.
-الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء:المرزباني
-الشعر و الشعراء:ابن قتيبة.
-النقد الأدبي:أحمد أمين.
-النقد الأدبي عند العرب و اليونان:قصي الحسين.
-تاريخ النقد الأدبي عند العرب:طه أحمد إبراهيم.
-في النقد الأدبي:عبد العزيز عتيق.